الأستاذة هدى عباس

الحرف اللبنانية بين التعثر والانقراض

تمهيد

عرف لبنان الصناعات اليدوية منذ القديم، وعلى امتداد العصور ظلت هذه الصناعات تمثل المصدر الثانى للدخل بعد الزراعة، وكان إنتاجها يلبى احتياجات السكان، وبمرور الزمان تحوّلت هذه الصناعات إلى فنون حرفية يُبدع فيها الفنان اللبناني باحتراف، يمزج الواقع بالخيال ليخرج فناً خالصاً، وساعد على ذلك وجود مناطق بكاملها يعيش فيها الحرفيون.

الحرف اللبنانية

في ظل غياب خريطة سياحية حرفية تراثية واضحة يجد ،اللبناني (داخلياً) والسائح (خارجياً) ، عجزاً في التعرّف على الحرف اللبنانية القديمة (العتيقة)، والتي تمثل جزءاً من ذاكرة القرى اللبنانية، والتي تخبر طريقة حياتهم البسيطة، وتسلك معها درب الحرير الحرفي... ففي كل حرفة قصة وذاكرة ، وضمن ذاكرة كل حرفي تسطَّرُ ثقافة أصيلة. تنضوي في نطاق الحرف الأصيلة والتي يصعب احصاؤها، بل سيتم عرض بعضها على سبيل المثال لا الحصر و سأقوم بالتنقيب عنها و البحث في تاريخها وتطورها ومناطقيتها ومدى مساهمتها في الاقتصاد الأسري...

يشتهر لبنان بمزيج خاصّ من الحرف التقليدية المصنوعة يدويّاً، بما فيها الاواني النحاسية (الصواني) والمطروقة والمزيّنة بالزخرفة العربية والسكاكين ذات القبضات المصنوعة من قرون الحيوانات والعلب الخشبية وألواح صابون زيت الزيتون والفخّار وغيرها من المنتجات. وتشتهر مناطق لبنان المختلفة بمساهمتها الفريدة في الحرف والفنون التراثية, لذا يجب على الزائر او السائح الاستفسار عن الصناعات المحلّية عند التنقل بين مختلف المناطق اللبنانية, ففي العاصمة بيروت تستطيع أن تجد منتجات حرفية تقليدية من كلّ أرجاء لبنان، فهناك متاجر الحرف التراثية أو (الأرتيزانا الخاصة) و متاجر وزارة السياحة حيث تباع الحرف المختلفة. ويكتسب الصابون المصنوع من زيتِ الزيتون، صابون لبنان التقليدي شعبية عالمية بفضل نقاوته وميزاته الترطيبية الطبيعية , إذ كان يصنع تقليدياً من زيت الزيتون الخاص الذي تنتجه العائلات اللبنانية من أشجار الزيتون التي تملكها، وبعد اكتمال تصنيع الصابون ينقش اسم العائلة على الالواح باللغة العربية أو غيره من الكلمات والرموز دلالة على نوعية الزيت المستخدم ومهارة صانع الصابون أو وصفته السرية, بعدها تباع ألواح صابون زيت الزيتون في المتاجر الصغيرة أو الأسواق الحرفية الموجودة في أرجاء لبنان.

المنجد، المبيض، الكوّى، المجبر العربي، الكندرجي، الفاخوري(صناعة الفخار)، صناعة الزجاجيات ، صناعة السكاكين، صناعة السفن...

هذه الحرف يعود أغلبها الى أكثر من مائة عام، بعضها ما زال صامداً في وجه التطور الصناعي الذي أحدث زلزالاً في التطور الحاصل وقاوم الحرفيون العاملون في هذه الحرف، رغم تراجع الإقبال عليه... فالتنجيد ما زال يمارس في أكثر المناطق اللبنانية وخاصة في صيدا القديمة (سوق البازركان).

الحرف التي قاومت ما زال بعضها كالمنجد والكوّى يثابران على العطاء والممارسة ، وهم الذين علموا أبناءهم من إنتاج محلات قديمة يفوق عمرها مئات السنين، تتبعثر في بعضها أكوام الصوف تحت ضربات المنجد... ولم يتعب أصحابها ، أو أبناءهم الذين ورثوا المهنة أو يكلوا رغم تراجع وتيرتها.

هؤلاء الحرفيون تابعوا بعض التطورات التي حصلت في مجال عملهم ، ويستمرون، وهذا يؤكد مدى عمق العلاقة التي تربطهم بهذه الحرف المستمرة في أحلك الظروف.

1-التنجيد حرفة يدوية قديمة، عمرها مئات السنين، ترتكز على القطن والصوف والقماش المصنّع منهما، والخيط المبروم والمصنوع من القطن الصافي، اضافة الى الإبرة و"الكشتبان" والشمع العسلي... ازدهرت في لبنان في ستينات القرن الماضي واقتصر روادها على الأغنياء.

اليوم فقدت هذه الحرفة بريقها وباتت تعاني من صعوبات متعددة، وكما قال أحد المنجدين العاملين في صيدا القديمة:"مهنتنا اليوم أضحت تحفة ، حيث بات يؤم محلاتنا بعض الفقراء الذين لايتمكنون من تجديد لوازمهم". إذن شارفت على الزوال ، بعد أن كان يقصدها في الماضي العرسان ويطلبون من المنجد الذهاب الى المنازل لينجز جهاز العروس. وهكذا تكون حرفة التنجيد قد أضحت في طريقها الى الذوبان في عصرنة الواقع.

أحد المنجدين في صيدا القديمة عندما سألته عن المهنة وامكانية استمرارها أجاب: " رزق الله ع إيام العز، لم نكن نهدأ أو نتوقف عن العمل وأكثر الأحيان نستمر حتى ساعات متأخرة من الليل. بينما اليوم نعمل بالقطارة... كنا نتنافس مع بعضنا بطبيعة العمل والتفنن به ، ومعاملة الزبائن و...

2- سلال القصب: لقد دوّن اللبنانيون أسرار مهنٍ وحياة مجتمعٍ، واليوم وبعد ثورة العصرنة ، باتوا على هامش الحياة العملية.ومن بين هذه الحرف، حرفة صناعة سلال القصب المهددة بالإنقراض، وقد انتشرت كثيراً في جنوب لبنان. فكانت ملاذ الفلاح والصناعي وربة المنزل، ومن بين الأماكن التي انتشرت فيها بلدة كفريا في منطقة صيدا.

الحرفي الذي يعمل في صناعة السلال يمضي معظم وقته يحبك أحجية القصب التي تتحول في خلال بعض الوقت الى سلة تُركن في زاوية من المنزل أو في محل تجاري في القرية، تنتظر من يشتريها.

تمرُّهذه الصناعة بعدة مراحل ... تبدأ بشراء القصب الذي يليَّن يالماء، بعدها يقشَّر ويقطَّع نسلات متطابقة... ومن ثم ينطلق الجرفي الى تركيب البدوة ،التي تمثل قاعدة السلة، ثم يتابع فيشبك القضيب ويجدله بنسلات مفسَّخة من القصب الطويل المتفرع من القاعدة والموزَّع بتباعد متساوٍ، وبعد تحديد الإرتفاع والإتساع المطلوبين، تُشبك وتُجدل المسكة العريضة ، والتي تشير الى انتهاء انجاز العمل.

هذه الصناعة كانت مطلوبة منذ ما يزيد على نصف قرن وفي هذه الأيام باتت سلة القصب تحفة فنية تزيَّن بها المنازل، الأمر الذي أدى الى تراجع الحرفة، و بدأت طبول رحيلها تُقرع.

3- صناعة السكاكين في مدينة جزين:

تتميز بلدة جزين بحرفة تصنيع السيوف والسكاكين والخناجر ، وغيرها من أدوات تناول الطعام التي تصنع مقابضها من قرون المواشي . كما يتم أيضاً تصنيع "علّاقات" المفاتيح ، سكاكين فتح الرسائل ، "فتّاحات القناني" ، وجميع أشكال الحفر على القرن و"الستانلس." "

بدأت هذه الحرفة منذ عام (1700) عبر الحفر على أغصان الأشجار المقطوعة، وأنواع الطيور التي تتواجد في الطبيعة. وبعد عقد أو عقدين تم إستبدال المقابض الخشبية العادية للسكاكين والخناجر، بالمقابض المحفورة على شكل طيور. وبعدها بفترة تم إعتماد القرون المحفورة كبديل للخشب، وهي فكرة ما زالت إلى اليوم أساس هذه الحرفة وميّزتها. كتحفة رائعة.

يَقطع الحرفي الجزء الفارغ من القرن ، ثم يمسكه بواسطة الملقط ، ويقلّبه على النار حتى يتجمّر ويلين ويصبح قابلاً للتقويم ، فيقوم بتثبيته "بالملزمة" ليقوّمه بواسطة المطرقة ، وتُزال الزوائد بواسطة المنجل.

يكون الحفر بواسطة المبارد ، فيتم حفر رأس البطة ، وإعطائها الشكل المطلوب ، بعدها يتم إستخدام منشار "التشربك" لتسوية مكان الجانحين حتى يلتصقا بالقرن ، من ثم يستخدم الحرفي منشار "التطعيم" على "ظهر" القرن/الطائر ، لإفساح المكان لإستدخال وتثبيت قطع من النحاس أو الألومنيوم بواسطة المطرقة. و بعد ذلك يثقب الطرف الأسفل من القرن (الموازي لرأس البطة)، ثم يصهر قليلاً من القصدير ويصبه ساخناً داخله ، و يُدخل آداة الطعام التي يريد وضع مقبض لها . هذه الأدوات تستورد من إيطاليا ولها شكل خاص ، حيث حلّ محل القبضةالقديمة، قبضة تحتوي على زردة طولها (5 سم) تسمح بتثبيتها بالمقبض الجديد.

بعد ذلك يقوم بنقش الجوانح وباقي أجزاء المقبض ، وتطعيمها بالنحاس أو الذهب ، والأحجار الكريمة ، فيرصعها ويزخرفها برسوم وأشكال مبتكرة.

وأحياناً تشارك النساء بهذا الجزء من العمل ، حيث يقمن بنقش وزخرفة القرن ، قبل أن يسلمنه للحرفي الذي يقوم بتلميعه النهائي .

توضَّب المنتوجات في علب خشبية مرصّعة ، ومبطّنة من الداخل بالمخمل.

تتخطى كل حرفة أهمية البعد الإقتصادي ، لتطال البعد الثقافي تحديداً ، حيث تشكل واسطة تنقل مخزون الذاكرة والتراث إلى الأجيال اللاحقة ، هي نبض الهوية وبعدها الحضاري في واقع العالم اليوم ، حيث تتلاطم الثقافات ولا تتلاقح ، وحيث يتم التثاقف عبر القسر والإكراه ، فلا بد من التمسك بهذا المخزون لحماية الحاضر والمستقبل.

تم توارث هذه الحرفة أباً عن جد، لكنها ليست حكراً على عائلة محددة في جزين قدر ما هي تميُّز خاص للمدينة نفسها.

كان الكبار يعلمون الصغار أصول الحرفة وفنونها، ويُترك لهم المجال لتطويرها وإبتكار أشكال فنية جديدة ومختلفة.

إن التحليل الأنثروبولوجي للصناعات الحرفية يوضّح دورها ووظيفتها ، كما يوضّح العلاقة الجدلية المتبادلة بينها وبين الإطار الثقافي العام في المجتمع. فالحرفي الفنان يكتشف في الشيء الذي أنتجه ، ليس مجرد وسيلة عملية فحسب، بل شهادة لقيامه بفعل خلّاق . وهذا يتوضح بطريقة تعاطي الحرفي مع منتجه بعد إنتهائه منه.

اليوم تعثرت هذه الحرفة وانقرضت وأصبحت ذكرى من الماضي.

4-الفخّار والخزفْ

الفخّار هو عبارة عن مفهوم يُطلَق على الأدوات والأواني التي تُصنَع من الطّين، ويتمّ استخدام النّار في تشكيلها، ويُعدّ تصنيع الفخّار من أقدم المِهَن التقليديّة.

يُعرَّف بأنّه فنّ صناعة الخزف؛ حيث يُطلَق على إنتاج الموادّ الفخاريّة مسمّى الأعمال الخزفيّة.

صناعة الفخّار من الصّناعات القديمة، التي تعتمد على رسم التّصميم الخاصّ بقطعة الفخّار قبل البدء بصناعتها، وتُستخدَم مادّةٌ أساسيّةٌ في هذه الصناعة وهي الطّين؛ وفيما يأتي الخطوات الرئيسيّة التي تُطبّق أثناء تنفيذها:

- خلط الطين: يُعدّ خلط الطّين الخطوة الأولى من خطوات صناعة الفخّار، ويعتمد على ترطيب الطّين؛ عن طريق إضافة الماء إليه أثناء وجوده في خزّانٍ مناسبٍ للخلط، وتستمرّ هذه العمليّة حتّى يُصبح الطّين قابلاً للتشكيل، وذلك بعد أن يتوزّع الماء . الذي يشكّل نسبة 30% منه .
- بضغَط الطين باستخدام المرشحات والفلاتر، التي تساهم في التخلّص من الماء الزّائد منه قبل وضعه على الطاحونة الخاصّة ببدء العمل على صناعة الفخّار، حيث تحتوي أسطوانةً يُثبَّت عليها الطّين، ومن ثمّ تبدأ الدّوران حتّى يتمكّن صانع الفخّار من تشكيله بطريقةٍ صحيحةٍ.
- التجويف هو الخطوة التي يستخدم فيها صانع الفخّار يدَيْه في تشكيل عُمق الأواني الفخّاريّة، أو قد يستعين بآلةٍ خاصّةٍ بتجويف الفخّار، تُساعده على صناعة الأواني

المُجوّفة، مثل: المزهريّات، أمّا تطبيق هذه الخطوة فيعتمد على لفّ الأسطوانة بالتّزامن مع لفّ الطّين الرّطب الموجود عليها، ويستمرّ تشكيل جوف المزهريّة حتّى يصل الصّانع إلى حجمها المطلوب، وقد تُستخدَم قوالب جاهزة تساعد على تجويف المزهريات بطريقةٍ سهلةٍ، وسريعةٍ، ودقيقةٍ في آنٍ معاً، قبل البدء بتجهيزها لتطبيق الخطوات اللاحقة.

- الصبّ هو صبّ الفخّار في قوالب من الجصّ أي الجبس، وهذا يزيد متانة الفخّار وجفافه؛ لأنّ الجبس يمتصّ بقايا الماء الموجودة في مكوّنات الطين، والتي لم تجفَّ بعد، وقد يحتوي قالب الجبس على مجموعةٍ من الأشكال والزّخارف التي تُستخدم في تزيين الفخّار، فتظهر على الطبقة الخارجيّة له، وتضيف الشّكل الجميل إليه.
- التزجيج التّزجيج هو الخطوة قبل الأخيرة في صناعة الفخّار، وتعتمد على التأكّد من جفافه نهائيّاً؛ استعداداً لاستخدام الألوان، لإضافة الطلاء إليه، وقد يُستخدَم في ذلك لون واحد أو خليط من الألوان، ممّا يزيد القطعة تميُّزاً وجمالاً، ويُستخدَم أسلوب رشّ الطلاء غالباً؛ فهو يضيف بعض الأشكال إلى الفخّار في حال لم تُستخدَم أيّة نقوشٍ أو زخارف على السّطح الخارجيّ للقطعة، أثناء وجودها في قالب الجصّ.
- الحرق هو الخطوة الأخيرة من خطوات صناعة الفخّار، وتُستخدَم فيها أفران الفحم، أو الخشب، أو الكهرباء؛ لتعريض الفخّار لأكبر درجة حرارةٍ مُمكِنةٍ؛ بحيث تساهم في تجفيفه، وتجفيف الطّلاء الموجود عليه ضمن طبقاته الخارجيّة والداخليّة كلّها، وبعد التأكُّد من جفاف الفخّار تماماً، عندها يصبح جاهزاً للاستخدام وفقاً للشّيء الذي صُنِعَ له.

مكونات الفخار: أهم مكونات صنع الفخار ما يلي:

- الكاولين: ، مادة تتكون بشكل أساسي من سيليكات الألمنيوم الرطب، ولها استخدامات واسعة في الصناعة، ويتمّ تشكيلها بطريقتين؛ جافة ورطبة، وتكون جودة المنتجات في

الطريقة الرطبة أعلى؛ هذا وتستخدم الطريقة الجافة في صناعة المطاط، أمّا الطريقة الرطبة فتستخدم في صناعة الورق.

تاريخ صناعة الفخار:

يتعذر تحديد تاريخ ظهور صناعة الخزف بدقّة, فمنذ أن اكتشف الإنسان خصائص الطين وأدرك أنّ بإمكانه أن يقولبه بيده ويجعله صلباً على النار، بدأت صناعة الخزف وكانت بشكلٍ بدائي , و لبنان غنيّ بهذه المادّة التي تكون سمراء أو صفراوية أو مائلة إلى الرمادي، وتوجد في الساحل و في الجبل.

عاصرت هذه الصناعة تاريخيّاً مجموعةً من المراحل الزمنيّة، ومن أهمّها:

- مرحلة ما قبل التاريخ: يعود تاريخ صناعة الفخّار إلى العصر الحجريّ الحديث، الذي ظهرت فيه العديد من الصناعات الفخّاريّة، واستخدمها الإنسان في ذلك الوقت في مجال إعداد الطّعام وحفظه، وقد اهتمّ الخزّافون في اليونان القديمة ومنطقة بحر إيجة بصناعة الفخّار ذي اللّون الأحمر، مع التّركيز على استخدام مجموعةٍ من الأشكال والزخارف المتنوّعة، التي ارتبطت بتراث تلك الحِقبة الزمنيّة.
- ظهرت عدّة أوانٍ فخّاريّةٍ في العصر البرونزيّ، حيث كانت عبارة عن تماثيلَ لزينة السُّفن والمراكب البحريّة، وفي منتصف هذا العصر ساهم الإغريق في وضع أُسس المدارس الأولى لصناعة الفخّار؛ خاصّةً في المباني والقصور التي شهدت العديد من الأعمال التي استُخدِم الفخّار فيها بشكل رئيسيّ؛ من أجل إضافة ذلك التّصميم الفريد لها.
- شهدت صناعة الفخّار تطوُّراً ملحوظاً في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة؛ حيث أُدخِل الزّجاج والرّصاص في صناعته؛ لزيادة صلابة قطعة الفخّار، بالإضافة إلى الشكل الجميل واللون المناسب اللّذين يُضفيهما الزّجاج؛ خاصّةً إذا خُلِط مع الطين في الطّبقات الخارجيّة.
- المرحلة الإسلامية شهدت صناعة الفخّار في العهد الإسلاميّ في كلٍّ من: مصر، وبلاد الشام، وبلاد الرّافدين، ومناطق الأناضول منافسةً ملحوظةً مع المناطق الغربيّة

والأوروبيّة في صناعته، وتحديداً في الفترة الزمنيّة الواقعة بين القرنين التاسع والثالث عشر للميلاد؛ إذ ظهر تأثير الفنون الإسلاميّة على صناعة الفخّار الذي تميّز بحرفيّةٍ عاليةٍ، وجودةٍ لا تُقارَن مع الفخّار المصنوع في البلاد الأخرى، وانتشرت الأواني الفخّاريّة في العديد من القصور، والمعالم التاريخيّة الإسلاميّة؛ ففي عهد الخلافة الأمويّة انتشرت الزّينة التي تعتمد الفخّار في القصور الدمشقيّة.

- انتشرت الأواني الفخّاريّة بكثرةٍ في عهد الخلافة العباسيّة؛ حيث استُعين في صناعتها بالأنماط الهندسيّة المتنوّعة، ولكن اقتصر استعمالها على الأدوات، والموادّ الخاصّة بالطّعام والماء، وساهم الخزّافون المسلمون في ابتكار العديد من الصناعات الفخّاريّة التي استعانت بها الشعوب الأخرى في أعمال الفخّار، ممّا أدّى إلى انتشارها في معظم أنحاء العالم.
- مرحلة العصر الحديث مرحلة العصر الحديث هي المرحلة التي تمتدّ من القرن الثامن عشر للميلاد إلى الوقت الحاضر، وشهدت صناعة الفخّار فيها تطوّراً ملحوظاً؛ وخصوصاً في قارّة أوروبا، والولايات المتّحدة الأمريكيّة، وكافّة أنحاء العالم عموماً؛ إذ ظهرت العديد من المصانع المتخصّصة في صناعة الفخّار، كما استُخدِمت مجموعة من الأدوات والوسائل التي ساهمت في تطوّر هذه الصّناعة، وزيادة الإنتاج الخاصّ بها في أغلب الدّول.

وعلى الصعيد اللبناني

تشتهر قرية (بيت شبات) الواقعة على بعد 20 كلم من بيروت باستمرار حرفةٍ عرفت ازدهاراً طويلاً فيما مضى إذ لا تزال عائلة من الحرفيين تصنع جراراً بارتفاع متر كانت تستخدم قديماً لحفظ الزيت و الزيتون والخلّ والعرق, وفي جنوب لبنان وعلى مسافة 70 كلم من صيدا تقع بلدة راشيا الفخّار التي نجد فيها أباريق من الفخّار تحمل رسوماً هندسية درج اقتناؤها في المنازل لتبريد المياه.

5- المراكب الخشبية: راجت هذه الصناهة في مدينتي صيدا وصور، وهي تشكل ركن الصناعة البحرية التي تعود الى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسماية سنة.

بدأت هذه الحرفة في صيدا بمواصفات فينيقية، حيث كان المركب يتخذ شكلاً مقدمته رأس ورقبة حصان وفي الخلق ذنب حورية بحر. وقد مثلت في الماضي الأساس الاقتصادي للأسر التي تمارس العمل فيها، واليوم تحاول أن تصمد في وجه هجمة التطوّر ، وغياب الراعي لها. ولكن دون جدوى في ظل الإحجام عنها وندرة العاملين فيها وارتفاع اسعار المواد الأولية التي تستخدم فيها...

6- الكندرجي: على مدخل سوق اللحم في النبطية، وفي إحدى زواياه توجد "مستشفى الاحذية" التي يجلس في داخلها "كندرجي" خلف ماكينته، يداوي أمراض الأحذية التي تتمثل بخلع وتغيير كعب حذاء، وتبديل سحاب محفظة وخياطة مزق وتركيب نصف نعل وغيرها من الأعطال الطارئة.

إنخفض عدد الذين يمارسون هذه المهنة في المدينة، بل هذه الحرفة التي تختزل تاريخ النبطية التي كانت مقصد التجار للتبادل التجاري في القرن العشرين. وكان حي السراي معقل العاملين فيها، وانتاجها كان تصدر الى خارج المدينة.

في الوقت الحاضر تحولت هذه الحرفة الى مهنة الفقير الذي يعمل طيلة النهار لتأمين متطلبات حياته الاسرية ... ولكن تدهور الاقتصاد اللبناني وارتفاع اسعار السلع ، دفع الناس للبحث عن قديمهم وإعادة تصليحة، وهذا ما أعاد بعض الروح اليها.

الواقع القانوني للحرف اللبنانية:

تحركت جمعية « نحن» ساعية لإقرار قانون يحمي الحرفيين ويحفظ حقوقهم، وجالت على المسؤولين، وأطلقت حملة واسعة لتسليط الضوء على واقع الحرفيين في لبنان، والحفاظ على الحرف اللبنانية من الإندثار، لا سيما أنها قادرة على لعب دور اقتصادي مهم.

وبداية قامت بوضع تعريف واضح للحرفي وهو: "الشخص الذي يعمل يدوياً لتحويل مادة خام الى منتج نهائي، على ان يكون هذا المنتج مرتبطاً بالإرث الثقافي، ويحمل لمسة إبداعية"، ومن ثم وضعت معايير تُحدد عمله. كما سعت للمطالبة بتغيير نظرة الدولة إليه، وربط العمل الحرفي بوزارة الصناعة لتكون وصية عليه، مع دور أساسي لوزارات الثقافة والسياحة والشؤون

الاجتماعية والعمل والاقتصاد والتربية وحتى البلديات. والأهم حماية الحرفيين وإدخالهم في الضمان الاجتماعي، وحماية عملهم من خلال رفع الرسوم الجمركية على البضائع المماثلة، بغية عدم إغراق السوق المحلي بها، للحفاظ على قيمة العمل الحرفي وابعاد المنافسة عن السوق. وتخفيض الضرائب على المواد الأولية المستخدمة .

العمل الحرفي والاقتصاد

الحالة الاقتصادية والمعيشية للحرفي تؤثر في مدى إبداعه وعطائه وإتقانه للعمل. فبعض الحرفيين لا يزال يقوم بالأعمال الموروثة نفسها بأدواتها وموادها وطريقة الصنع وإنتاجها القليل، رغم المردود المادي المحدود. يبررون ذلك بعامل الإعتياد وملء الوقت بعمل منتج ولو كان يسيراً. وهذا مقترن بالمحافظة على الوظيفة والدور الاجتماعي. وبذلك تكون الحرفة هي انتماء ثقافي اجتماعي وليست للكسب وحسب.

و حرف اليوم المتبقية لا تزال بإطارها التقليدي الشعبي كما ورثها الأبناء عن الآباء، ومن ثم عن الأجداد. وهل هناك إبداع وتصنيع أم تركيب وضع على مثال معين؟ وأي تغير حصل كمياً ونوعياً في إطار المادة والأداة وطريقة الصنع؟ هل تغير الحرفي وهل لديه الاستعداد لتقبل الجديد وتحديث حرفته؟ وهل من تغير حصل من داخل الحرفة؟ وهل للعناصر الوافدة أهمية في تطوير وإغناء الحرفة؟

الاجابة على هذه الاسئلة يوضح الواقع الاقتصادي لاصحاب الحرف الصامدة في وجه أعاصير الالغاء... وما يبين ذلك بوضوح هو السوق الذي يعتبر عاملاً مساعداً في استمرار الحرفة ونموها، لأن العلاقة بين السوق والحرفة مهمة. فالحرفي بدأ بإنتاج فردي ليفي بحاجاته الخاصة، ليصبح حرفي القرية وبعدها حرفي المنطقة، وهكذا بدأ الإتساع من الخاص إلى العام. والأرجح أن لكل مجموعة سكانية حرفييها، ثم لاحقاً بدأ الإختصاص في بعض القرى، وهذا ما حصل في راشيا الفخار وفي جزين وغيرها...

مع وجود السوق اتسعت دائرة الإستهلاك، ودائرة التبادل، فزاد الإنتاج ثم الخروج عن الدائرة الأولية في الإنتاج، بما يعرف «بالتوصاية» أي الطلب المسبق لإنتاج السلعة إلى مبدأ التراكم وبدون طلب مسبق.

والتكامل الاقتصادي القديم القائم على أسواق موزعة طيلة أيام الأسبوع، تتمم بعضها البعض بشكل تكاملي في سلسلة من مجموعة حلقات. ثم مع تغير الطابع القديم للسوق، تعددت الأسواق بعد أن كانت قليلة العدد. وأصبحت معظم القرى تقيم أسواقها الخاصة. ومع سهولة التواصل بين المناطق والمدن، اتسع هامش الاستبدال. وتم استيراد سلع مثيلة للإنتاج المحلي أو سلع تحل محلها وظيفياً.

الخاتمة

في الغرب يشجعون الحرف ويدعمون العاملين فيها، بينما في لبنان الحرفة باتت في الحضيض،

والعمل الحرفي أصبح مقيداً بثلاثة معوقات أساسية حيث لا تعريف واضحاً لماهيته، ولا معايير له، إضافة الى نظرة الدولة التهميشية له وغياب القوانين التي تشكل إطاره الشرعي . وقد أدى هذا التهميش مع الوقت الى اندثار حرف كثيرة من لبنان وانقراض المهارات التي كانت ترافقها بدل تمريرها الى الأجيال المقبلة.

معاناة الحرفيين تذهب أبعد من التسميات والمعايير فهم في الواقع لا يملكون أي ضمان صحي او اجتماعي كونهم أفراداً لا مصانع، وليسوا قادرين على التصدير بشكل شرعي، لأنهم لا يملكون شهادة منشأ وتُفرض عليهم ضرائب عالية، إذا ما قاموا بتسجيل مؤسساتهم لذا فإن العديدين منهم يعملون في السر ولا يصرّحون عن أشغالهم. اما الحماية الجمركية فغائبة كلياً في حين أنه في الدول الأخرى تفرض ضرائب باهظة على البضائع الحرفية التي يتم إدخالها الى البلد حين يكون هناك بضائع حرفية شبيهة لها في البلد. والمؤلم في الأمر أن لبنان الذي

كان قد خصص معلماً هندسيا رائعاً في منطقة عين المريسة هو « بيت المحترف اللبناني» عاد في زمن الانحطاط وحوّل هذا المعلم الى مطاعم ولم يترك إلا جزءاً يسيراً منه للحرفيين، أما مطار بيروت الذي كان يحوي أكثر من 40 محلاً حرفياً فلم يعد فيه اليوم إلا بضعة محلات فيما سوق جبيل القديم باتت معظم بضائعه «التراثية»مستوردة من الخارج.

المراجع

1-ابن منظور (ب، ت): لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الثامن

2-اعتماد علام: الحرف والصناعات التّقليديّة بين الثبات والتغير، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991

3-رحيل دندش، الصتاعات الحرفية والإبداعية: قطاع" غير قانةني " مهدّد الزوال 2021

4-رحيل دندش، الصتاعات الحرفية والإبداعية: قطاع" غير قانةني " مهدّد الزوال 2021

5- فريدريك معتوق: الحرفيّيون في لبنان واقع وافاق، اللجنة الوطنية اللبنانيّة للتربية والعلم والثقافة (اليونيسكو)، بيروت، 2002

6-قانون العمل اللبنانيّ: المجلّة القضائيّة، قوانين العمل والعمال، دار المنشورات الحقوقية، مطبعة صادر، بيروت، 200

7-www.saidanet.com